

يا عمال العالم، اتحدوا!



سؤالين

طلاب ثورة أكتوبر العالمي

ترجمة

عز الدين بن عثمان الهديدي

لمناسبة الذكرى الرابعة والتسعين لثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى

نُتِج
النشر البشفاكي العربي

تونس، تشرين الثاني 2011

الطبعة الرقمية الأولى. تونس، تشرين الثاني 2011.

النسخ كاملاً مجاناً رقمياً أو ورقياً.

سؤالين

طابع ثورة أكتوبر العالمي

ليست ثورة أكتوبر ثورة «في التطاق القومي» فحسب، بل هي قبل كل شيء ثورة ذات طابع عالمي، كوني، لأنها شكّلت في التاريخ العالمي تحوّلاً جذرياً، صنعته الإنسانية، من العالم القديم، الرّأسالي، نحو العالم الجديد، الاشتراكي. كانت الثورات في السابق تنتهي، عادة، باستبدال مجموعة مستغلّين بمجموعة مستغلّين أخرى على رأس الدولة. يتبدّل المستغلّون ويبقى الاستغلال. كان الأمر على هذا النحو خلال حركات العبيد التّحرّرية. وكان الأمر على هذا النحو في فترة انتفاضات الأقبان. وكان الأمر على هذا النحو في فترة الثورات «الكبرى» التي عرفناها في إنجلترا وفرنسا وألمانيا. ولا أتحدث في هذا السّياق عن كومونة باريس التي كانت المحاولة الأولى، المشرّفة والبطولية ولكن غير المثمرة، للبروليتاريا لكي تجعل التاريخ يسير ضد الرّأسمالية.

تختلف ثورة أكتوبر عن هذه الثورات من حيث المبدأ. فهي لا تطرح استبدال شكل استغلال بشكل استغلال آخر، استبدال مجموعة مستغلين بمجموعة مستغلين أخرى، بل تطرح القضاء على كل استغلال للإنسان من جانب الإنسان والقضاء على كل مجموعات المستغلين مهما كانوا وإرساء دكتاتورية البروليتاريا، إرساء سلطة الطبقة الأكثر ثورية بين جميع الطبقات المضطهدة التي وجدت حتى اليوم وتنظيم مجتمع جديد، المجتمع الاشتراكي الخالي من الطبقات.

لهذا السبب بالذات يعتبر انتصار ثورة أكتوبر تحولا جذريا في تاريخ الإنسانية، تحولا جذريا في المصير التاريخي للرأسمالية العالمية، تحولا جذريا في حركة تحرير البروليتاريا العالمية، تحولا جذريا في أساليب النضال وأشكال التنظيم وفي طريقة العيش والعادات وفي ثقافة وإيديولوجيا الجماهير المستغلة في العالم بأسره. هنا يكمن السبب في أن ثورة أكتوبر ثورة من طراز عالمي، كوني. هنا، أيضا، يكمن سبب التعاطف العميق إزاء ثورة أكتوبر الذي تبديه الطبقات المضطهدة في جميع البلدان التي ترى فيها الضمانة لخلاصها.

يمكننا الإشارة إلى مجموعة من المسائل الأساسية التي تبرز تأثير ثورة أكتوبر على تطوير الحركة الثورية في العالم كله.

1. لثورة أكتوبر، أولا، هذه الخاصية المتمثلة في اختراق جبهة الإمبريالية العالمية والإطاحة بالبرجوازية الإمبريالية في أحد أكبر البلدان الرأسمالية ومنح السلطة للبروليتاريا الاشتراكية.

أول مرة في تاريخ الإنسانية، ترتقي طبقة الأجراء، طبقة المسحوقين، طبقة المضطهدين والمستغلين، إلى مرتبة الطبقة السائدة جاذبة إليها، بمثلها، عمال جميع

البلدان. يعني ذلك أنّ ثورة أكتوبر قد افتتحت عصرا جديدا، عصر الثورات البروليتارية في بلدان الإمبريالية.

لقد انتزعت من كبار المالكين العقاريين ومن الرأسماليين أدوات الإنتاج ووسائله وحوّلتها إلى ملكية اجتماعية، وفضحت بذلك أكذوبة الرأسماليين الذين يزعمون أنّ الملكية البرجوازية لا يمكن الاستغناء عنها وأنها مقدّسة وخالدة.

لقد انتزعت السلطة من البرجوازية وحرمتها من الحقوق السياسية وحطّمت جهاز الدولة البرجوازي ونقلت السلطة للسوفييتات، معارضة بذلك البرلمانية البرجوازية أي الديمقراطية البرجوازية بالسلطة السوفييتات الاشتراكية أي الديمقراطية البروليتارية. لقد كان لافارج على حقّ عندما قال منذ 1887 أنّه غداة الثورة «كلّ الرأسماليين السابقين سوف يجرمون من الحقوق الانتخابية». وبذلك فضحت ثورة أكتوبر، في نفس الوقت، أكذوبة الاشتراكيين الديمقراطيين الذين يزعمون أنّ الانتقال السلمي إلى الاشتراكية عن طريق البرلمانية أصبح الآن ممكنا.

لكنّ ثورة أكتوبر لم تتوقف، ولا يمكنها أن تتوقف، عند هذا الحدّ. فبعد قضائها على النظام القديم البرجوازي، شرعت في بناء النظام الجديد الاشتراكي. إنّ العشر سنوات التي مرّت من عمر ثورة أكتوبر هي عشر سنوات من بناء الحزب والنقابات والسوفييتات والتعاونيات والمنظمات الثقافية ووسائل النقل والصناعة والجيش الأحمر. إنّ التّجاهات التي لا جدال فيها للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي في مجال البناء، قد بيّنت بجلاء أنّ البروليتاريا تستطيع أن تحكم البلد بنجاح بدون البرجوازية وضدّ البرجوازية، وأنّها تستطيع بناء الصناعة بنجاح بدون البرجوازية وضدّ البرجوازية، وأنّها تستطيع قيادة كلّ الاقتصاد الوطني بنجاح

بدون البرجوازية وضد البرجوازية، وأنها تستطيع بناء الاشتراكية بنجاح رغم الحصار الرأسمالي.

إنّ «النظرية» القديمة القائلة بأنّ المستغلّين لا يمكنهم الاستغناء عن المستغلّين، تماما مثل الرأس وبقية أعضاء الجسم التي لا يمكنها الاستغناء عن المعدة، لا تعود فقط إلى السناتور الروماني القديم ميننيوس أغريبا، بل تشكّل هذه «النظرية» حاليًا حجر الزاوية لعموم الـ«فلسفة» السياسيّة عند الاشتراكية الديمقراطيّة ولسياستها في التعاون مع البرجوازية الإمبرياليّة بوجه خاص. هذه النظرية التي أصبحت من المسلمات، هي الآن أحد أهمّ العراقيل أمام نشر الرّوح الثوريّة في صفوف بروليتاريا البلدان الرأسماليّة. وكان من أهمّ نتائج ثورة أكتوبر توجيه ضربة قاتلة لهذه النظرية الرّائعة.

هل من حاجة بعد، لإثبات أنّ هذه النتائج وما شابهها لثورة أكتوبر لم يكن بإمكانها، ولا يمكن لها أن تبقى، دون ممارسة تأثير جدي على الحركة الثوريّة للطبقة العماليّة في البلدان الرأسماليّة؟ إن وقائع يعرفها الجميع، مثل استمرار انتشار الشيوعيّة في البلدان الرأسماليّة وتنامي تعاطف عمال جميع البلدان إزاء الطبقة العماليّة في الاتحاد السوفييتي، وأخيرا تدفق الوفود العماليّة إلى بلد السوفييت، كلها تثبت، قطعيا، أنّ البذرة التي زرعتها ثورة أكتوبر قد بدأت بعد تعطي ثمارها.

2. لقد زعزت ثورة أكتوبر الإمبرياليّة لا فقط في مراكز هيمنتها بل ضربت كذلك مؤخرة الإمبرياليّة، أطرافها، عن طريق القضاء على هيمنة الإمبرياليّة في البلدان المستعمرة والتابعة. بالإطاحة بكبار المالكين العقاريين والرأسماليين، فككت ثورة أكتوبر سلاسل الاضطهاد القومي والاستعماري وحرّرت جميع الشعوب المضطهدة دون استثناء التي كانت تعيش في إطار دولة شاسعة. لا يمكن

للبروليتاريا أن تتحرّر دون أن تحرّر الشعوب المضطّهدة. وكانت ميزة ثورة أكتوبر أنها أنجزت، في إطار الاتحاد السوفيتي، تلك الثورات الوطنية ضدّ الاستعمار لا تحت راية العداء القومي والتّزاعات بين الأمم، بل تحت راية ثقة متبادلة وتقارب أخوي لعمال وفلاحى الاتحاد السوفيتي، لا باسم القومية بل باسم الأممية.

وبسبب أن الثورات الوطنية ضدّ الاستعمار تمت عندنا تحت قيادة البروليتاريا وتحت راية الأممية، لهذا السبب بالذات ارتقت الشعوب المنسيّة، الشعوب المستعبدة، لأوّل مرّة في تاريخ البشرية، إلى مرتبة الشعوب الحرّة فعلا والمتساوية فعلا، جاذبة بمثلها الحيّ شعوب العالم قاطبة. هذا يعني أنّ ثورة أكتوبر قد دشنت عصرا جديدا، عصر الثورات الوطنية التحرّرية في بلدان العالم المضطّهدة بالتحالف مع البروليتاريا وتحت قيادتها.

في الماضي، كان «مقبولا» اعتبار العالم منقسما منذ عهد غابر إلى أعراق دنيا وأعراق عليا، إلى سود وبيض، الأوائل غير مؤهلين للحضارة ومآلم الخضوع للاستغلال، والآخريين وحدهم أهل الحضارة ومدعويين لاستغلال الأوائل. يجب الآن اعتبار هذه الأسطورة قد تحطمت ووقع نبذها. وكان من أهم نتائج ثورة أكتوبر توجيه ضربة قاتلة لهذه الأسطورة بإثباتها في الواقع أنّ الشعوب المتحرّرة غير الأوروبية التي سلكت طريق التطور السوفيتي لا تقل قدرة على تطوير الثقافة والحضارة المتطوّرة حقا عن الشعوب الأوروبية.

في الماضي، كان «مقبولا» اعتبار طريقة القومية البرجوازية هي الطريقة الوحيدة لتحرير الشعوب المضطّهدة، طريقة تقوم على فصل الأمم بعضها عن بعض، على تقوية العداوات القومية بين الجماهير الكادحة في مختلف الأمم. الآن يجب اعتبار هذه الأسطورة قد دُحضت. إن إحدى أهم نتائج ثورة أكتوبر هي توجيه ضربة

قاتلة لهذه الأسطورة، مبيّنة على أرض الواقع أنّ الطّريقة البروليتاريّة، الأمّية لتحرير الشّعوب المضطّهدة بوصفها الطّريقة الصّحيحة والعادلة الوحيدة، هي أمر ممكن وعقلاني، ومبيّنة أنّ الاتحاد الأخوي للعمال والفلاحين من شعوب متنوّعة، اتحاد مبنيّ على الإرادة الحرّة والأمّية، هو أمر ممكن وعقلاني. ولا شك أنّ وجود اتحاد الجمهوريات السّوفييتيّة الاشتراكية بوصفه مثالا للاتحاد المستقبلي لعمال جميع البلدان في اقتصاد عالمي واحد يعتبر دليلا مباشرا على ذلك.

ولا حاجة للقول بأن هذه النتائج وغيرها لثورة أكتوبر لم يكن بإمكانها ولم تكن لتبقى دون ممارسة تأثير جديّ على الحركة الثوريّة في البلدان المستعمّرة والتابعة. إنّ وقائع مثل نموّ الحركة الثوريّة عند الشّعوب المضطّهدة في الصّين وإندونيسيا والهند، الخ، والتعاطف المتزايد لتلك الشّعوب مع الاتحاد السّوفييتي، هي أدلّة ثابتة. لقد مضى العهد الذي كانوا يستطيعون فيه استغلال واضطهاد المستعمرات والبلدان التابعة بكل هدوء، وحلّ محلّه عهد الثورات التّحررية في المستعمرات والبلدان التابعة، عهد استفاقة بروليتاريا هذه البلدان وعهد هيمنتها على الثّورة.

3. بزرعها بذرة الثّورة في مراكز الإمبرياليّة ومؤخّرتها على حد سواء، وبإضعافها قوّة الإمبرياليّة في «المتروبولات» وزعزعة هيمنتها في المستعمرات، هدّدت ثورة أكتوبر وجود مجمل الرّأسماليّة العالميّة نفسه. فلنّ تفسّخ التّطوّر العفوي للرّأسماليّة في ظروف الإمبرياليّة - بفعل نسقه غير المتساوي وبفعل التّزاعات والصّدّامات المسلّحة، وأخيرا بفعل المجزرة الإمبرياليّة غير المسبوقة - إلى مسار تقيّح الرّأسماليّة واحتضارها، فإنّ ثورة أكتوبر ونتيجتها الممثّلة في انفصال بلد شاسع عن الرّأسماليّة العالميّة، لا يمكنها إلاّ أن تتعجّل في هذا المسار عن طريق نسف، خطوة بعد خطوة، ركائز الإمبرياليّة العالميّة نفسها.

أكثر من ذلك. بزعرتها الإمبريالية، خلقت ثورة أكتوبر، في نفس الوقت، في شكل أول دكتاتورية بروتارية، قاعدة قوية ومفتوحة للحركة الثورية العالمية لم تكن لها من قبل أبدا، والتي يمكن الاعتماد عليها الآن. لقد خلقت مركزا قويا ومفتوحا للحركة الثورية العالمية لم يكن لها من قبل أبدا، والذي يمكن التجمع حوله الآن بتنظيم الجبهة الثورية الموحدة للعمال والشعوب المضطهدة في جميع البلدان ضد الإمبريالية.

هذا يعني أولا، أن ثورة أكتوبر قد أصابت الرأسمالية العالمية بجرح قاتل لن تشفى منه أبدا. لهذا السبب بالذات لن تستعيد الرأسمالية أبدا «التوازن» و«الاستقرار» الذين كانا لها قبل أكتوبر. يمكن للرأسمالية أن تستقر جزئيا، يمكنها ترشيد إنتاجها، تسلم قيادة البلاد للفاشية، تحجيم وقمع الطبقة العالمية مؤقتا، لكن لن تستعيد أبدا ذلك «الهدوء» وتلك «الثقة»، ذلك «التوازن» وذلك «الاستقرار» الذين تتبجح بهما من قبل، لأن أزمة الرأسمالية العالمية قد بلغت درجة من الاحتداد بحيث صار من الحتمي أن تفتح نيران الثورة طريقا لها تارة في مراكز الإمبريالية وتارة أخرى في أطرافها، مقلصة هامش الترفيع الرأسمالي إلى الصفر ومعجلة انهيار الرأسمالية يوما بعد يوم. تماما كما يقال في الحكاية المعروفة: «يخلص الذيل فينغمس المنقار ويخلص المنقار فينغمس الذيل».

هذا يعني ثانيا، أن ثورة أكتوبر قد رفعت إلى درجة معينة من قوة وأهمية الطبقات المضطهدة في العالم بأسره، ومن شجاعتها وروحها القتالية، وأجبرت الطبقات السائدة على أخذها في الحسبان بوصفها عنصرا جديدا وخطيرا. لم يعد بالإمكان اليوم اعتبار الجماهير الكادحة في العالم «جمهورا أعمى» يتخبط في الظلام دون آفاق، لأن ثورة أكتوبر خلقت لها منارة تدير طريقها وتفتح لها آفاقا. إذا لم يكن هناك من قبل قلعة عالمية مفتوحة لإبراز وتجسيم طموحات الطبقات

المظلومة وإرادتها، فاليوم توجد تلك القلعة ممثلة في أول دكتاتورية بروليتارية. ولا شك أن تحطيم هذه القلعة سيلتقي لمدة طويلة بحياة البلدان «المتقدمة» الاجتماعية والسياسية في غياهب رجعية سوداء لا حدود لها. لا يمكن إنكار أن مجرد وجود «الدولة البلشفية» يكبح قوى الرجعية الظلامية ويسهل نضال الطبقات الكادحة من أجل انعقادها. هذا ما يفسر عموماً الكراهية الوحشية التي يكنّها المستغلون للبلاشفة في كل البلدان.

إن التاريخ يعيد نفسه وإن على قاعدة جديدة؛ فقديماً، في عصر انهيار الإقطاع، كان لفظ «يعقوبي» يثير الرعب والتقزز عند أرستقراطي جميع البلدان. نفس الشيء الآن، في عصر انهيار الرأسمالية، يثير لفظ «بلشفي» الرعب والتقزز في البلدان البرجوازية. وفي الحالة المعاكسة، مثلما كانت باريس ملاذاً ومدرسة للثوريين من ممثلي البرجوازية الصاعدة، أصبحت موسكو الآن ملاذاً ومدرسة للثوريين من ممثلي البروليتاريا الصاعدة. ومن المعروف أن الكراهية التي كانت تكنّها الإقطاعية لليعاقبة لم تنقذ الإقطاعيين من الغرق، وهل يمكننا الشك في أن الكراهية التي تكنّها الرأسمالية للبلاشفة لن تنقذ الرأسمالية من الدمار المؤكد. لقد ولى عهد «استقرار» الرأسمالية حاملاً معه أسطورة رسوخ النظام البرجوازي، وأتى عهد انهيار الرأسمالية.

4. ثورة أكتوبر ليست ثورة في ميدان العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فحسب، بل هي كذلك ثورة في الأفكار، ثورة في إيديولوجيا الطبقة العاملة. لقد نشأت ثورة أكتوبر وقويت تحت راية الماركسية، تحت راية دكتاتورية البروليتاريا، تحت راية اللينينية التي هي ماركسية عصر الإمبريالية والثورات البروليتارية. لذلك هي علامة على انتصار الماركسية على الإصلاحية، انتصار اللينينية على الاشتراكية الديمقراطية، انتصار الأمية الثالثة على الأمية الثانية.

لقد حفرت ثورة أكتوبر هوة عميقة بين الماركسيّة والاشتراكية الديمقراطيّة، بين سياسة اللينينية وسياسة الاشتراكية الديمقراطيّة. فيما مضى، قبل انتصار دكتاتوريّة البروليتاريا، كان يمكن للاشتراكية الديمقراطيّة أن تتشدد برأية الماركسيّة وأن لا تنكر بصورة مكشوفة فكرة دكتاتوريّة البروليتاريا، ولكن أيضا، دون أن تفعل شيئا على الإطلاق من أجل تحقيق هذه الفكرة، ولم يكن هذا السلوك من جانب الاشتراكية الديمقراطيّة يشكل أي تهديد للرأسماليّة.

الآن وبعد انتصار دكتاتوريّة البروليتاريا وبعد أن شاهد الجميع بأعينهم إلى ما يمكن أن تؤدي إليه الماركسيّة، لم تعد الاشتراكية الديمقراطيّة قادرة على التبحر برأية الماركسيّة، لم يعد بإمكانها إعلان فكرة دكتاتوريّة البروليتاريا دون أن تخلق خطرا جديا على الرأسماليّة. بعد قطيعتها منذ زمن طويل مع روح الماركسيّة، أجبرت الآن على القطع مع راية الماركسيّة. لقد اتخذت موقفا معاديا بوضوح ضدّ ثورة أكتوبر، وليدة الماركسيّة، ضدّ أوّل دكتاتوريّة بروليتاريّة في العالم. لذلك كان عليها أن تتخلّى عن الماركسيّة وقد تخلّت عنها بالفعل، لأنّه في الظروف الحاليّة لا يمكن للمرء أن يسمّي نفسه ماركسياً دون أن يساند بصورة مكشوفة ودون تحفظ أوّل دكتاتوريّة بروليتاريّة في العالم، دون ممارسة النضال الثوري ضدّ برجوازيته بالذات ودون خلق الشروط الضّروريّة لانتصار دكتاتوريّة البروليتاريا في بلده بالذات. لقد نشأت هوة عميقة بين الاشتراكية الديمقراطيّة والماركسيّة. بعد الآن، الممثل الوحيد للماركسيّة وقلعها الوحيدة هي اللينينية، هي الشيوعيّة. لكنّ الأمور لم تقف عند هذا الحدّ؛ فبعد رسمها خط التمايز بين الاشتراكية الديمقراطيّة والماركسيّة ذهبت ثورة أكتوبر إلى أبعد من ذلك برميها الاشتراكية الديمقراطيّة في معسكر المدافعين المباشرين عن الرأسماليّة ضدّ الدكتاتوريّة البروليتاريّة الأولى في العالم. عندما ينعت السادة أدلر وباور، ولز ولفي، لونغي وبلوم «التّظام السوفيتي» بأقذع النعوت مادحين «الديمقراطيّة البرلمانيّة»، فإنهم يريدون أن يظهروا بذلك

أنهم يناضلون وسيواصلون النضال من أجل إعادة النظام الرأسمالي إلى الاتحاد السوفييتي ومن أجل الحفاظ على العبودية الرأسمالية في الدول «المتحضرة».

تعتبر الاشتراكية الديمقراطية اليوم سند الرأسمالية الإيديولوجي. لقد كان لينين على حق ألف مرّة عندما كان يقول أنّ السّاسة الاشتراكيين الديمقراطيين هم في أيامنا «عملاء حقيقيون للبرجوازية في الحركة العمالية، الخدم العماليون لطبقة الرأسماليين» وأنهم سيصطقون، حتّى، «في الحرب الأهلية بين البروليتاريا والبرجوازية إلى جانب الفرسانيين ضدّ رجال الكومونة». لا يمكن القضاء على الإمبريالية دون القضاء على الاشتراكية الديمقراطية في الحركة العمالية، لذلك فإنّ عهد احتضار الرأسمالية هو في نفس الوقت عهد احتضار الاشتراكية الديمقراطية في الحركة العمالية. ويتمثّل مغزى ثورة أكتوبر الكبير، إضافة إلى أمور أخرى، في كونها أعلنت الانتصار اللينينيّة المؤكّد على الاشتراكية الديمقراطية في الحركة العمالية. لقد انتهى عهد سيطرة الأميّة الثابته والاشتراكية الديمقراطية في الحركة العمالية وحلّ عهد سيطرة اللينينيّة والأميّة الثالثة.

البرافدا، عدد 255، 6 و7 تشرين الثاني 1927.

نشر هذه الترجمة لأوّل مرّة في:

الحوار المتمدّن، في 15 تشرين الثاني 2011.